

+

+

إدارة الدولة للجلادين : الغنغينة

ف. كريمي

400	1. مقدمة
400	2. هوية الجلادين
401	3. فقدان الفردية
402	4. التبرير النفسي والانفصال المعنوي
403	5. التلقين الإيديولوجي
404	6. إرثاء الجلادين
405	7. مشاركة الأطباء

+

+

1. مقدمة

إن الأمرين بالتعذيب في الجزائر ليسوا مقتنعين؛ بل يُعرفون أنفسهم بأنهم «استئصاليون». طبعاً لم يختاروا هذا الاسم لما يحمله ويقذفه من معاني الرعب الميثلل فقط، وهو ولا ريب اسم مُذهل يرسم صورة قدرة كلية، قوة لا تهزم. بل اختاروا هذا الاسم كذلك لأن هؤلاء الجنرالات الاستئصاليين لا ينتابهم أيّ إحساس بالخجل أو الذنب إذ أن نشاطاتهم الإجرامية ترسم معالمها أهدافاً أخلاقية عالية، من النوع التطهيري. فهم يفتخرون بفضاعة أفعالهم.

مع هذا، قليلاً ما نعرف عن الجلادين الذين يخدمونهم. لذا فالهدف من وراء هذه الصفحات هو محاولة رسم صورة ولو تقريبية لنفسية الجلادين وهذا من خلال الشهادات التي نشرت في الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر.¹

2. هوية الجلادين

أول ما يمكن قوله هو أنهم يخفون أسماءهم جيداً، فمن بين الشهادات الثلاثة والخمسين التي أحصيناها لم نعتز إلا على عدد قليل من أسماء الجلادين:

- الدرك الوطني²: المساعد الأول «رينقو» (Ringo) بحى بوزريعة ورئيس الفرقة حموي بحى بابا حسن؛
- الشرطة³: رشيد «أزرق العينين» (أمن دائرة حسين داي)، ونصر الدين داسي (أمن دائرة العفرون)، والمحافظ محمد تيغا (شرطة البلدية)؛
- الأمن العسكري⁴: الحاج كراع (ثكنة الأمن العسكري بجيدرة)، والضابط طلحي (الأمن العسكري بجيدرة)، والنقيب إيسولي (مركز الأمن العسكري بين عكنون)؛
- سجن سرکاجي⁵: رايح باجراح.

إن أبرز الصفات لكل الجلادين الموصوفين في شهادات المعذبين هي كونهم «منعدمي العقول» و«وحوشاً»⁶ و«صعاليك» و«مختلي العقول»⁷ و«ساديين»⁸ يتحركون «بنزعات شيطانية»⁹.

لا عجب إذا وُجِّه المرء بكل هذه الوحشية، أن يصور الجلادين كمخلوقات عديمة العقل ووحشية وأنهم مما شذ في الطبيعة، يقومون بأعمالهم البشعة في ساعات من الذروة الجنونية والنزعات التي لا تضبط.

لكن نتائج البحوث¹⁰ التي أجريت حول نفسية وإدارة الجلادين في العالم تناقض هذه الصورة وهذه الافتراضات. لقد أظهرت هذه البحوث أنه رغم وجود حالات¹⁰ قام فيها أشخاص ساديون ومختلون عقليا بعمليات تعذيب للتلذذ بها، فإنه في أغلب الحالات التي يتم فيها التعذيب بأوامر من موظفين في نظام ما، فإن الجلادين يقدمون على أنهم أشخاص عاديون، خاصة عند بداية وظيفتهم. بل إن الأمرين بالتعذيب لا يطمئنون إلى مدى الاعتماد على أشخاص مختلين عقليا لا يتلذذون إلا بالإحساس بالقوة أو بتسليط الألم على الآخرين. ولكن يرى قوردن¹¹ أن الجلادين يتغيرون نفسيا بالتدرج إلى ساديين خلال ممارستهم للتعذيب، فتجدهم يزداد تمتعهم بعملهم هذا - حتى جنسيا أحيانا - مع ازدياد التجارب التي يعايشونها والتي يصبح فيها البشر (أصلا أحرار) أشياء لسلطتهم المطلقة، ويعبرون عن هذه القدرة بإيلامهم.

3. فقدان الفردية

إن ما يشد الانتباه كذلك لدى قراءة الشهادات هو كون اعتراف التعذيب عملية جماعية. فتجد المعدَّبين حين يصفون محنتهم يتكلمون عن الجهة القائمة بالتعذيب مستعملين ضمير جمع الغائب¹² فيقولون: «هم...» أو «الآخرون...» أو «لقد سُلمت إلى شِرْزِمة من المفتشين» أو «لقد واجهت في كل مرة عصاة جديدة». كذلك فإن الجلادين حين يتكلمون فإنهم يستعملون ضمير الجمع: «حضر ضابط اسمه طلحي... وقال لي: "إننا لا نبالي بالله أو بالسياسة أو بالدين، إنك إن لم تعترف فسنعذبك عذابا لم تره من قبل...»¹³

لقد أحصينا في الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر أساليب أخرى تُفقد الجلادين هويتهم الشخصية وتزيل فرديتهم. قال معدَّب في شهادته: «إن الجلادين كانوا يستعملون ألقابا لمناداة بعضهم البعض: عمر 1، عمر 2، ...، عمر 14...» كما أن القناع

¹⁰ راجع ج. ت. جيسون، "العوامل التي تساهم في صنع جلاذ"، في كتاب *Psychology and Torture* (علم النفس والتعذيب) الذي حرَّره ب. سود فلد (P. Suedfeld)، مؤسسة همسفير (Hemisphere) للنشر، لندن 1990. بعبارة أخرى فإنه اتضح أن خصائص الشخصية الفردية وخلفية الأشخاص أنفسهم لا تسمح بتمييز أولئك الذين يقومون بالتعذيب بالأعمال الوحشية وأولئك الذين هم منها براء.

يستعمل بكثرة بطبيعة الحال. وقد استحدث الجلادون كذلك مفردات خاصة لإنشاء ثقافة خاصة بالمجموعة، فعلى سبيل المثال فقد روى أحد المعدّبين: «أنه توجد قاعة خاصة بالتعذيب يسميها الجلادون "المختبر" حياء.»¹⁴ كذلك فإن للعديد من أساليب التعذيب أسماء "تقنية".

نستخلص من هذا أن الجلاد تذبذب شخصيته في مجموعته وأن مفهومه لذاته ولـ"أنه" مربوط بشدة بمفهومه للمجموعة ("النحن")، كما أنه يعرف به. يرى ستاوب¹⁵ أن تلاشي حدود الأنا (أو الذات) يُسهّل عملية العدوى العاطفية، أي انتشار الأحاسيس داخل المجموعة، وبالتالي تبلور ردود فعل مشتركة ومتزامنة تجاه الأحداث. وفقدان فردية الجلادين يزيد قوة المجموعة على تحديد ما هو «سليم» أو مقبول أخلاقياً، كما يقلل احتمال الخروج أو التمرد على المجموعة.

وتهدف تقنيات فصل الفردية التي ذكرنا آنفاً إلى إضعاف¹⁶ قوة نفوذ المحظورات الاجتماعية وإلى إضعاف وازع المسؤولية والخوف من العقاب. كما أنها تهدف - من خلال ثقافة المجموعة - إلى جعل الجلاد يتفادى مواجهة¹⁷ معنى ما يقوم به من أعمال.

4. التبرير النفسي والانفصال المعنوي

مع كل هذا فإن فقدان الجلاد لفرديته لا يكفي لشرح فعل إخضاع أشخاص آخرين إلى عنف شديد كالتعذيب، فهناك ميكانزمات عديدة يمكن إحصاؤها من خلال شهادات مثل نقل المسؤولية وعملية الانفصال أو الانسحاب المعنوي والتبرير النفسي. هناك كذلك الأسلوب السائد القائم على تجريد المعدّبين من فرديتهم عن طريق تجريدهم من ثيابهم وبوضع أقنعة¹⁸ على وجوههم وبسلب أسمائهم فيصبحون بالتالي - في أعين الجلادين - أعضاء مجهولين في المجموعة المستهدفة مما يسهل عملية تعذيبهم. ومن الأساليب الرائجة كذلك النعت بالتلميح.

كذلك وبصفة نظامية نجد التبرير النفسي الذي يعتمد على تجريد الضحية من قيمتها وإنسانيتها ومعنوياتها. فالمعدّبون يُتركون عمداً في ظروف صحية رهيبية للغاية لفترات من الزمن طويلة جداً وقد جرّدوا من ثيابهم، يمزق الجوع والعطش أحشاءهم، غاصّين في دمائهم، أجسادهم وسخة نتنة. فهذا معدّب يروي ما عاناه: «كان الأمر مذهلاً حقاً، فبعد أسبوع من التعذيب أُلقي بي في إحدى الزنزانات الواقعة تحت الأرض، فوجدت هناك أربعة وعشرين شاباً في حالة جسدية مقلقة وحالتهم سيئة من فرط الجوع والعطش. كانت

الظروف الصحية سيئة للغاية إذ كنا نقضي حاجتنا في نفس المكان. كان الهواء رديفاً لم نطق تنفسه. كنا نعيش في ظروف دون الحيوانات.»¹⁹

والجدير بالملاحظة هنا هو أن هذا الأسلوب القائم على تجريد المعدب من إنسانيته لا يستهدف المعدبين وحدهم. فإن البحوث التي قام بها ستاوب (Staub)²⁰ تظهر أن هذا الأسلوب يمثل كذلك أداة للتبرير النفسي لما يقوم به الجلاد من تعذيب. فهذه الدراسات تظهر أن الجلادين يُفقدون الضحايا قيمتهم حتى إن تسببوا في آلامهم (وخاصة بأنهم فعلوا ذلك). فإذا أصبح المعدبون ضعفاء وعاجزين ووسخين سهل آنذاك على الجلاد أن يتصورهم كوحيدات من جنس تحت البشر أو من صنف حيواني. مثل هذا التصور يمنع الجلاد من الإحساس بأي تعاطف مع المعدب أو حتى بتأنيب الضمير، وتسهل عندئذ عملية التعذيب.²¹ ينتج عن هذه الحالة النفسية ازدياد اللجوء إلى ممارسة التعذيب، والتي تؤدي بدورها إلى تحولات نفسية أعمق لدى الجلاد.

5. التلقين الإيديولوجي

إذا كان الجلاد يتغير خلال ممارسة سلطته وأدائه لمهامه، فإن عملية التطور تبدأ حتماً بالإعداد النفسي والإيديولوجي الذي يسبق دائماً بداية تصفية المجموعة البشرية المستهدفة. وبصفة عامة يمكن القول أنه تستحيل عملية التعذيب - التي تخدم مصالح الجلاد أو مجموعته - بدون إعداد نفسي وإيديولوجي يسبقها أو يتخللها. تستلزم المناعة الذاتية والنفسية والإيديولوجية للجلاد أن ينفصل عن الضحية تماماً وأن يجردها من قيمتها وأن ينظر إليها على أنها تستحق عقابها.

إذا فالانفصال عن الضحايا وتجريدهم من قيمتهم وإقصائهم معنويًا، كل هذه العوامل تمثل جزءاً من الإنتاج الدعائي^ب الذي يصف الضحايا بأنهم «وحوش» و«ملتحمون» و«إرهابيون» و«مجانين» و«جرذان» و«ديدان» و«ضباع» و«مرضى الإيدز» و«سرطان» ينبغي استئصالهم. إننا نجد هذا العناد النفسي في بعض أشكال التعذيب، منها مثلاً ما يخص اللحية، وفي بعض الرُّهَاب (الفوييا) والتعلق المرضي لدى الجلادين.

ويمكننا إعادة تشكيل المذهبة الإيديولوجية للجلادين وذلك من خلال كلامهم المروي في الشهادات. هناك ثلاثة مواضيع يمكن إحصاؤها:

^ب لقد تضاعفت هذه الجهود الترويجية بضعة أيام قبل انقلاب يناير 1992، ولا تزال هذه الجهود مكثفة إلى يومنا هذا.

1. كثيرا ما يوصف المعذبون بأنهم «حرّكة»^ج، أي خونة للأمة. ويفهم من هذا أن الجلادين يرون أنفسهم نخبة حماة للأمة.
2. رغم أن معظم الجلادين يسبون الله والدين، وأن بعضهم له نوع من الزهَاب من القرآن،²² ليس هناك شيء يدل على أن تحضيرهم الإيديولوجي يستهدف الإسلام صراحة. بالعكس، فإنهم تمذهبوا على أنهم المدافعون عن الإسلام «الصحيح». يذكر معذب كلام جلاده الذي يشرح له «انحراف الجبهة الإسلامية للإنقاذ والفراغ السياسي لبرنامجها والانتشار المضر للوهابية السعودية، التي - في نظره - أدت إلى انبثاق مجموعة "المجرة والتكفير"، ومخططات اليهود للتحكم في العالم سياسيا واقتصاديا... في نظره قد وجد اليهود أناسا مثلنا لتحطيم الإسلام والبلاد الإسلامية».²³
3. يبدو أن الجلادين علّموا كذلك بعض الأسس لمذهب الأمن القومي، فتجد من خلال كلامهم المذكور في بعض الشهادات أنهم يرون في أنفسهم نخبة الأمة التي تتحمل مسؤولية جسيمة وهي الدفاع عن الأمة ضد «التجسس الأمريكي»²⁴ وضد «دسائس إيران والسودان»²⁵ وضد «كل الذين قادوا البلد إلى الإفلاس».²⁶

6. إرتشاء الجلادين

هناك صفة نظامية أخرى سائدة في إدارة الجلادين وقد دُكرت في الشهادات: عملية النهب لممتلكات وأغراض المعذبين حين إيقافهم. فمن بين الشهادات الثلاث والخمسين نجد سبعة أشخاص (أي 8%) ذكروا أن ممتلكاتهم نُهبت: «25000 دينار جزائري ومجوهرات زوجتي»²⁷ «45000 دينار»²⁸ «8000 دينار»²⁹ «أموال نقدا بالإضافة إلى الأدوات التي أستعملها في عملي وكذلك بعض الأثاث»³⁰ «20000 دينار»³¹ «سرقوا كل المال والذهب والأشياء الثمينة بحضور ضباطهم».³² وهذه الشهادات تطابق تماما نتائج الدراسات³³ حول إدارة الجلادين، والتي أظهرت أن النهب مسموح به رسميا كوسيلة لمكافحة الجلادين. وتكون هذه النقطة أحيانا السبب الأول لترشيح بعض الجلادين للعمل.

ج يطلق مفهوم الحرّكة في الثقافة السياسية الجزائرية على فئات من الجزائريين الذين وقفوا مع الفرنسيين ضد استقلال الجزائر.

يرى ستاوب (Staub) وهلبيرق (Hilberg) أن النهب معرف في حدود "مقبولة" لتحديد ما سيعود للجلادين كمجموعة وما سيقسم على أعضائها فرادى.³⁴

7. مشاركة الأطباء

أخيرا وكخلاصة لما سبق، ينبغي ذكر خاصية أخرى تتكرر بانتظام، ألا وهي مساعدة أطباء على التعذيب. يمر هؤلاء الأطباء وبدرجة أقل بعملية الإعداد النفسي والإيديولوجي، وهم يتغيرون نفسيا كذلك على قدر ما يبقون مطاوعين أمام ما يشاهدونه من تعذيب للضحايا. رغم أن مشاركتهم قد تبدو إنسانية إلا أنهم يخدمون الجلادين لا المعدّبين. إذ يساعدون على إعادة إنعاش الضحايا أو إبقائهم في حالة من الوعي حتى يلاقوا قسما أكبر من العذاب، وكذلك ينصحون الجلادين باستعمال أساليب تعذيب تلائم حالة المعدّبين. قال عبد الرحيم³⁵ في خاتمة شهادته: «إنني أقدم شكوى كذلك ضد أطباء مستشفى عين النعجة الذين أوكلت إليهم مهمة معالجي. فححصص العلاج تلك كانت تتم بأسلوب وحشي، ولم يجرؤ الأطباء ولا مرة على طلب أن تقوم الشرطة بإزاحة القيد والأغلال عن يدي». يقول الطيب زيتوني الذي عُذّب في ثكنة ليسالين (الملاحه) بدلس طوال شهر مايو 1995: «بعدها طلب الجلاّد إحضار آلة الكهرباء، وهذه المرّة وضعها في دبري مضاعفا التيار الكهربائي. لم يكن بمقدوري تحمّل ذلك الألم فأغمي عليّ. أحضروا الطيب العسكري ليكشف عليّ، فقال لهم: "قليل من الجوّ" (Jus) سيريجّه تماما! فوضعوا الكهرباء هذه المرّة في قضيبي حتى أغمي عليّ مرّة أخرى ووجدت نفسي بعدها في زنزاني أرتجف.»³⁶ (أنظر كذلك شهادة أ. سالم³⁷).

ويتذرع الأطباء بأعذار نفسية شبيهة بتلك التي يتخذها الجلاّدون ذريعة لتبرير احتمال مشاركتهم معنويا. فقد ذكر عدد من المعدّبين³⁸ المسجونين في سركاّجي حالة ذلك الطيب «الذي كان من الأفضل عدم رؤيته. لقد كان متكبرا، وكان يتفادى أن يلمسنا خوفا من أن يعلق به "وسخ" ما. وكان ينصحنا بأسلوب تهكمي بأن نشرب... الزيت (؟). كانت قلة التربية وانعدام الضمير المهني السمّتان الأساسيتان لهذا الطيب الذي درس - على الأرجح - في مراكز التعذيب بدلا من الجامعة، لأنه كان يلحق بالمرضى آلاما رهيبية بدل التخفيف عنهم. لقد كان من خلال تصرفه يمثل إرهاب الدولة.»

^د ملاحظة: باللغة الفرنسية كلمة جو (Jus) تشير إلى العصير والتيار الكهربائي في آن واحد.

الهوامش

- 1 C.A.M.L.D.H.D.H., Le Livre blanc sur la répression en Algérie (1991-1995), Hoggar, Genève, 1995
- 2 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 108، 160، 202.
- 3 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 135، 157، 158.
- 4 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 167 - 170. وانظر كذلك عقيد (ص 143) ورائد (ص 170).
- 5 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 196.
- 6 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 41، 42، 151.
- 7 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 156، 158.
- 8 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 174.
- 9 الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 177.
- 10 نجد في الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر حالات واضحة من السادية، والسادية مصطلح لاتيني يراد به التلذذ بممارسة الجنس أثناء التعذيب (انظر "التعذيب الجنسي" والشهادات ص 132، 138، 187)، وحالات تُصَف الجلاذون فيها بأنهم كانوا سكارى (ص 113، 138) ومخدرين (ص 86).
- 11 هـ. قوردن، "الشر السياسي: السادية القانونية والمخفية"، في كتاب "التعذيب: حقوق الإنسان، الأخلاقيات الطبية وقضية إسرائيل"، لندن 1995.
- 12 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 113، 114، 126، 127، 129، 142.
- 13 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 168.
- 14 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 114.
- 15 أ. ستاوب، "نفسية التعذيب والجلاذين وثقافتهم"، في كتاب ب. سودفلد "علم النفس والتعذيب" المذكور أعلاه.
- 16 ب. ج. زيماردو وآخرون، "التحليل النفسي للسجن: المنع والقوة، علم الأمراض" في كتاب ز. روبن، "الفعل على الآخرين" برتنس هول، نيو جيرزي، 1974.
- 17 م. ليمان، "التعذيب والجلاذ: نظرة عامة عن نتائج البحث"، في كتاب الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي، واشنطن 1982.
- 18 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 128، 130، 138، 151.
- 19 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 52، 204.
- 20 انظر الهامش 15.
- 21 انظر الدراسة التي قام بها أ. بندورة و ب. أندروود و م. فرومسون بعنوان "التحطّي كبت النزعات العدوانية عبر تعميم المسؤوليات وتجريد الضحايا من إنسانيتهم"، مجلة البحوث في الشخصية، عدد 9 (1975)، ص 253.
- 22 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 35.
- 23 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 142.

- 24 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 143.
- 25 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 171.
- 26 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 127.
- 27 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 40.
- 28 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 123.
- 29 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 139.
- 30 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 182.
- 31 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 189.
- 32 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 198.
- 33 ر. هليرق، "طبيعة العملية"، في كتاب ج. دمسدايل (محرر) "الضحايا والجلادون" ص 5-54، مؤسسة همسفير للنشر، واشنطن، 1980، انظر كذلك الهامش (14).
- 34 انظر الهوامش 15 و33.
- 35 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 172.
- 36 راجع ديوان الشهادات الذي حرره م. آيت لعربي، م. فاروق، م. حسين، م. س. لعلوي، ر. والكان، ل. سالم بديس، بعنوان أصوات من لا صوت لهم، في الجزء الأول من هذا الكتاب.
- 37 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 175.
- 38 انظر الكتاب الأبيض عن القمع في الجزائر، ص 44.